

هل الدين لازم للبشر؟

ليس علينا من حرج في أن نختصر التعريف اللغوي لكلمة الدين ، وأن
لانسهب في ذلك كثيراً لأن قصدنا من هذا الفصل واضح جلي وهو الدراسة
الواقعية والنفسية لمدى كلمة الدين وما تهدف اليه وتبغى تحقيقه
فالدين بمعناه اللغوي ، وبكسر الدال المشددة وضم النون هو الطاعة

والانقياد فيقال رجل متدين يعنى مستسلم منقاد مطيع
وعلى كل حال فإن أول ما يعنى للباحث في دراسة الدين وماهيته ومدلوله
ومدى احتياج البشر اليه أو استغنائهم عنه والدور الذى يؤديه للإنسان فى حياته
والتأثير الذى يحدثه له فى مجريات أمورهم إن كان لذلك كله نصيب كما سيظهر بعد
أول ما يعنى للباحث : هو أن ما يقابل الدين من مدلولات وتفسيرات
أنه جملة معتقدات لأشياء سماوية وغيبية ، ظاهرة وخفية يدركها الانسان بعقله
وبصيرته وقلبه أم يعجز عن إدراكها واحساسها وتصورها والالمام بها والحكم
عليها فالمعقدة فى الدين إذاً هى العقيدة لأراء ومبادئ وصفات وأحكام يطمنن
الانسان إليها ويعمل بها ولها يخطو خطواته على ضوئها ، ويستضيء بهديها
يكون أحكامه وتصوره للأشياء والناس والصفات من خلال منظارها

وإذا كنا نحن سنقيم دراستنا ونبرز دلائلنا ونبسط تشريحنا لحقيقة الدين
وساهمته ، والدور الذى يلعبه فى حياة الانسان من الوجهة العقلية
والمعنوية فقط

وإذا كنا قد علمنا أن ما يقابل الدين هو العقيدة : أو أن العقيدة هى الأصل
فى الدين ، أو هى البذرة التى تنفجر منها مبادئه وتوالى بغير دعائه على أصولها

إذا كنا قد علمنا ذلك كله فأننا نحب أن نوجه الى أنفسنا وإلى قرائنا هذين السؤالين وهما أولاً : هل العقائد التي اصطنعها الانسان البدائي لنفسه كانت باختياره وبوحى من كواشيه النفسية أم أنه ارغم عليها ارغاماً ، واكره عليها اكراماً ؟ ثانياً : هل يتأتى للانسان عاقل متحضر أن يدب على ظهر الأرض وأن يعمر في دنياه طويلاً دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هذه العقيدة ؟ للإجابة عن هذين السؤالين يحتم علينا الواجب أن نستعرض في اختصار ولحاحات سريعة تاريخ الانسان واطواره المختلفة حتى الآن ولا نحب أن نستهدف لبحوث طويله نعتقد أنها لا تهمنا في بحثنا هذا بل نعتقد فوق ذلك أنها ليست على أهمية كبيرة أو ضئيلة للإنسانية بعد أن قطعت هذه المرحلة الطويلة في الارتفاع والتطور والرقى وتكوين هذا الوعي الانساني العام ثم لا نحب أن نفتحم هذه المنطقة الجديّة التي اختلف فيها العلماء كثيراً وهي : هل المادة قديمة أم الروح وبالتالي هل الاصل في الانسان أنه حيوان مادي نشأ من المادة أم أنه روح خلقها الله قبل أن يستوى مادة

وإن كنا نحن سنتجنب الخوض في ذلك كثير فأننا سنتجنبه لاشياء الشفقة منا في اطالة هذا الفصل من الكتاب وفي وضع كلام في غير موضعه ولا يماننا بأنه من الخير والفائدة للإنسانية أن تفسر حقيقتها وحقيقة الوجود كما هو وكما أدركته ولمسته بدل أن تنفق وقتها وتقيس مقاييسها في شيء علمته بالسمع وعرفته بالخيال وتتبعها لمنهاجنا الذي رسمناه لأنفسنا في بحثنا في هذا الكتاب ولهذا الموضوع بالذات وهو أننا لن نتعرض لشيء إلا لما هو واقع تحت نظرنا مدرك لعقولنا مؤثر في انسانيتنا يحتاج اليه النوع البشري في تسكين حياته وفي رسم ما ينتظره من درجات التقدم والسمو والارتفاع غير أن ذلك كله لن يمنعنا من أن نمس هذا الموضوع مساهجاً ونطرقه طرقاً متواضعاً

ولذا كان دارون قد أقام دعائم مذهبه الذي آمن به كثير من العلماء والمفكرين على أن المادة قديمة وعلى أن أصل الانسان تدرج من حيوان قذر منهط فإنه قد وجد من العلماء في هذا العصر من ينكر قدم المادة ومن يقرر

في غير تحفظ بدلائل ثابتة مادية أن الروح هي الاصل في القدم بدليل تفتت الذرة ، وبدليل ما أثبتته علم التنويم المغناطيسى من تأثير الجسم بالروح ، وانفعاله بها ، ونخصوه بها

وإذا كنا نحن سنخالف دارون ومن لف لفه من الماديين الطبيعيين فيما ذهبوا اليه من أن أصل الإنسان وعنصره تدرج من حيوان بهيمى منحط قدر فإننا نخالفهم لما سبق من دلائل على قدم الروح ومن تأثير الإنسان البدائى بها من طريق اللا شعور ، ومن أن الإنسان الأول كان حقيقة أشبه بالحيوان في طبعه وغرائزه وذلك بحكم اضطباعه بطبيعة الارض المادية التى نشأ فيها ودرج عليها واسكن الروح كانت من عناصر تكوينه وخلقته مستترة في كوامن نفسه بحكم طغيان الغريز المادية عليها ، وقوتها منها

ومع ذلك فإن أول ما يسترهينا من بحث أطوار الإنسان المختلفة حتى الآن أن نقف قليلا عند هذا الطور الذى حقق الإنسان فيه لنفسه ثلاثة أشياء كانت بالنسبة له على أعظم جانب من الخطورة وهى المنطق ، ومعرفة النار واستغلال الأحجار فى صنع أوانيها وما يلزمه من معدات وأشياء

من هذا الطور نستطيع حقيقة أن نتبين فى وضوح ويقين حقيقة الجنس البشرى لأنه قد أثبت فيه لنفسه ارتفاع عنصره وامتياز خلقة فى هذا الطور فنجد العقيدة قد ابتدأت تلعب دورها الخطير فى حياة الإنسان

فى هذا الوقت ننظر فنجد الروح السكائمة فى نفس الإنسان قد هتكت النقاب عن نفسها وقد أخذت تظهر شيئا فشيئاً مثبتة لوجودها عاملة على اظهار شخصيتها فلقد استرعى نظر الإنسان الأول الذى كان يسكن الغابات ويعيش فى الكهوف فبكرة الموت بعد أن كان يسمى ذلك أولا النوم الطويل ، وبعد أن كان لا يعرف شيئا عن المرات البتة وذلك بحكم الطبيعة وبحكم ظروفه السابقة التى كانت تحيط به والتى كانت فيها الغرائز الوحشية الفطرية هى المسيطرة عليه فسكان الموت يأتيه نتيجة لا فتراسه من الوحوش أو لتصادمه مع آخرين وكان

كل ما يحدث له أو يصدر عنه أو يتمثل في خاطره يأتي نتيجة لأعماله الفطرية والإدراكية وللقوة الجبرية الغريزية فيه . ولكنه بعد أن أصبح اجتماعياً شيئاً ما بحكم اصطناعه للكلام والنار والآنية أخذ يحس كأن مؤثر آخر يؤثر في حياته غير غرائزة الجسدية بدليل ما كان يترادى له في النوم من أفعال وأعمال وحوادث تتمثل أمام خاطره مثل تصارعه مع آخرين أو أقدام وحش من الوحوش على افتراسه فيقوم من نومه فزعاً مضطرباً فلا يجد شيئاً حدث له البتة ومن هنا آمن بالروح وأخذت عقيدته فيها تتشكل بأشكال مختلفة مع تطوره وقوة إدراكه

والمهم هو أن العقيدة قد نشأت في نفسه في أول فرصة أتت له عندما استطاع أن يتحلل من غرائز الحيوان السفلى وأن يرتفع إلى منزلة الإنسان القادر على الشعور والإدراك

ثم أخذت العقيدة عنده تتطور مع تطوره وتتشكل فيه بأشكال مختلفة حسب ما كانت توحيه ظروفه ويتمخض عنه خياله

أصبحت عقيدته في هذا الوقت ذا أثر فعال في رسم مجرى حياته وفي تكوين خياله وتصوره للناس والأشياء والكائنات

ولو رجعنا نحن إلى علم (الميثولوجيا) لنبحث في طواريه ونفتش في جوانبه عن أصل العقيدة التي اصطنعها الإنسان الأول لنفسه لوجدناها ساذجة بسيطة بما كان يتفق وعقله الضيق وإدراكه المحدود فلقد كان يعتقد الألوهية في آباءه وأجداده وذلك لايمانه بأرواحهم التي لم تفن بفناء أجسادهم وإنما هي باقية خالدة غير قابلة للفناء . ومن هنا كان يقدسها ويقدم لها القرابين ومن هنا أيضاً كانت عقيدته فيها وإيمانه بها ذا أثر كبير في كل ما يقدم عليه من عمل أو يحدث له من حوادث أو يرجو من أشياء

ثم تطورت به العقيدة على أن يكون الله هو رب قبياته وذلك لما بلغه من مرحلة كبيرة في الكثرة والتناسل ومعرفة وسائل التنافس والاستغلال فكانت كل قبيلة لها إلهها القوى الشجاع القادر على كل شيء والذي بيده الأمر والنهي

والخير والشر والذي تغضى عليه من السمات والصفات ما تنفخه وتعالى به على
قريناتها من القبائل الأخرى

والدارس الذي يتحرى الدقة في بحثه لا يسعه إلا أن يقف متأملاً في هذا
الطور من أطوار الانسان . وأن لا يجزم له بعقيدة معينة كان يؤمن بها أو عبادة
خاصة كان يصطنعها لأنه هنا في هذا الطور - طور الكثرة والتناسل والتفرع
والتشعب - لا يمكن أن يعين الباحث ديانة واحدة . أو عبادة خاصة كانت تفرض
سلطانها عليه ، وكان يستظل بها أفراد الانسانية جميعاً وذلك لوجود ديانات
كثيرة لاسبيل الى حصرها ولا محل للجزم بأن واحدة منها كان يستظل بها
أبناء البشر جميعاً وعلماء مقارنة الأديان يعترفون بتطور الأديان واتفاقها في
في الصفة والكثرة والتشعب ثم الاختلاف حسب ما كان يعثور البشرية من ألوان
الحياة التي أتت نتيجة لكثرتها وتشعبها واختلافها

واذا كانت الظاهرة التي يستخرجها الباحث في الديانات أنها لم تتفق في شيء
قدر اتفاقها في الدعة الى الروحانية إلا أن ذلك لا يكون دليلاً على أنها كانت
قرينة الصلة والتفاهم بعضها من البعض الآخر وعلى أنها متخالفة من العصبية
والتعصب نزيهة من الاختلاف والتخاصم والتنافر والبعد والشقاق

وأصدق شيء يمكن أن نصور به هذا الطور من أطوار الديانات أنها كانت
في خصائصها وذاتها فقيرة قاصرة متفقة مع المقدار الضئيل الذي استوعبته الانسانية
من الوعي والادراك متخاصمة متنافرة متعصبة بقدر ما كان يسرد الانسانية
في ذلك الوقت من التخاصم والتنافر والتعصب

ومن هنا نستطيع أن ندرك العلة في تلون الديانات بألوان معتقديها وعصبيتها
بالبينة التي كانوا يعيشون فيها وتعددتها وتنافرها وذلك لأن عقول البشرية لم
تسكن قديماً بعد لقبول مبدأ التوحيد الصحيح ولم يهزم دعوة الإله الواحد
الحلاق الذي يجب أن يدين له البشر جميعاً بالطاعة والانقياد

يقول الأستاذ العقاد في كتابه الله صفحة ٢٥

فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه ولسكنه لم يكن على سلم واحد

متعاقب الدرجات بل كان هلى سلام مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على حدته لا يطرد فى التقدم عقيدة . بعد عقيدة ، ولا تزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحد من عوامل التطور والارتقاء . وأن الديانات نشأت فى شعوب كثيرة لا فى شعب واحد فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقة التى رتقى إليها من طبقات الحضارة فيتفق له فى الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ويتقدمقر السابق أحيانا قبل أن يتقدم المتخلف اليه وربما سميت قبيلة متخلفة ربا من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعا ولم يكن ذلك دليلا على ارتفاع فى فهم الربوبية بل على ضيق فى حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذى تعيش فيه القبيلة) ويقول ايضا فى كتابه صفحة ٣٠

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليفة والحياة فإذا دخلت هى أيضا فى عدد المملولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة الى خالق موجود للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على نظرية قصة ابراهيم فى القرآن الكريم)

ثم يقول فى صفحة ٣٢ — ٣٣

دوجملة القول أن أطوار العقيدة الالهية تشعبت بين الناس فلم تطرد هلى مراحل متشابهة فى جميع الأمم وفى جميع الأزمان ولكننا اذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تغارق أطوارها الأولى وأن عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان الى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فسكانت الشمس هى أكبر مارآه وتوجه اليه بالعبادة ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره الى ما هو أعظم منها وأهلى فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التوحيد ولم يبق بعدا عتبار الشمس رمزا للقوة الكونية

إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلمه الانسان من الديانات الكتابية شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الالهية نهاية التنزيل ،

ونحن وإن كنا نخالف الاستاذ للعقاد في رأيه من أن عبادة الشمس هي (القنطرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التوحيد) وهي الطريق الأخير الذي بلغه الانسان لقبوله بعد ذلك مبدأ التوحيد

إذا كنا نخالفه في ذلك فنحن نخالفه لما سبق أن قررناه فيما تقدم وفيما قرره هو أيضاً

وهو أن الديانات لم تمس على خط واحد منظم منسق وإنما كانت تعتمل فيها عوامل الصعوه والهبوط ، والتقدم والانحطاط التي كانت تعتور البشر في ذلك الحين . ولأن الأمم التي كوت لتفهم حضارات وأثرت في تاريخ البشرية كانت تؤمن بالاصنام وتعدد الآلهة مع أنها تختلف عن الأمم التي تعبد السكواكب وتؤله الشمس في أشياء كثيرة غاية في الخطورة وهي أنها لم تكن متأخرة مثلها ولم تكن فقيرة في الوعي والادراك مثل ما كان عليه عبدة الشمس والسكواكب وإن الآية القرآنية التي أشار إليها الاستاذ للعقاد في كتابه وهي من سورة الانعام في قوله تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملسكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازهاً قال هذا ربي فلما أفل قال لن يهتدى ربي لا يكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى يرى بما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض خنيهاً وما أنا من المشركين)

هذه الآية لم تكن تمن أن تؤرخ تطور العقيدة كما فهم الاستاذ للعقاد ذلك وإنما كانت في الحقيقة تدعو الانسان الى أن يتدبر في معرفة الله بعقله وفؤاده وبصيرته ولا جرح عليه في ذلك ان اخطأ ثم اهتدى الى الحق والضواب وهنا غاية المرونة والتسامح من قبل الله كانت هذه الآية تقر ذلك ثم تقر قدرة الله في عظمة ودعوة تصور وهو أن هذه الشمس في مقدرتها الكونية لأنها

أعظم قوة كونية يمكن أن يراها الانسان : هذه الشمس الضخمة الكبيرة
لا تخلو من العجز والقصور والافول بخلاف قدرة الله القوية الجبارة التي لا يعتورها
عجز ولا نقصان ولا ضعف ولا أفول ويوافقنا على رأينا هذا الأستاذ
الامام محمد عبده قال رحمه الله في تفسير المنار الجزء السابع

« ان الله تعالى انزل القرآن هدى وموعظة وجعل قصص الرسل فيه عبرة
وتذكرة لا تاريخ شعوب ومدائن ولا تحقيق وقائع ومواقع
ثم جاء في الجزء الثاني من تفسير المنار أيضا

« فإن قيل إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء
بها عن الوحي فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية في القرآن وكانت في
التوراة أكثر ؟

والجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار
للأمم أو البلاد لمعرفة احوالها ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع
بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم انذارا للكافرين بما جاء به
محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين به)

وجملة ما نود أن نقوله ونقرره بشأن تطور العقيدة أنها كانت بصيرة
ناضجة بقدر ما استوعبه الانسان من بصيرة وما تأتى له من نضج ، وأنها
كانت متطورة واهية مع تطور الانسانية وما اكتسبته من وعى وأن الديانات
الكتابية لم تنزل عليها الا بعد أن توفر لها من وسائل التكافؤ والاستعداد
ما تستطيع أن تهضم به مادتها وهما اليه من عبادة الإله الواحد الأحد الذي سيجازى
المحسن ويكافئه على ما قدمت يداه من خير وينتقم من المذنب على ما ارتكبه
من شرور وآثام

من هذا العرض السريع الذي نعتقد أننا لم نسهب فيه كثيرا لاننا لسنا في
حاجة إلى هذا الاسهاب في دراستنا هذه يظهر لنا كيف وجدت العقيدة في
نفس الانسان الاول ، وكيف أنه هو الذي اكتشفها بنفسه واعطى لها اختياره
ولم يرغم عليها ارغاما أو يساق اليها سوقانا وهذا هو جوابنا على السؤال الاول

أما جربنا على السؤال الثاني وهو هل من الممكن لإنسان متحضر أن يعيش عيشته المثالية ، وأن يسعى في الحياة يأخذ من الناس ويعطيهم يتطامن معهم في شيء أو يختلف عنهم فيه هل يتأتى لهذا الإنسان أن يعيش دون أن تكون له عقيدة أيًا كانت هذه العقيدة .

أما أنا فإن جواني على ذلك أنه ليس من الممكن إطلاقاً وأن هذا الإنسان لم يوجد بعد وأغلب الظن أنه لن يوجد أبداً بدليل ما قررناه في السؤال الأول وهو أن العقيدة ليست شيئاً جديداً على الإنسان طارئاً عليه يمكن أن يلغىها من نفسه أو يعتزلها وينهوعنها وإنما هي وجدت مع وجوده كأنسان مدرك مستشعر لما يحدث له أو يصدر عنه أو يحيط به

وجدت هذه العقيدة كما قررنا في ردنا عن السؤال الأول عنده يوم أن تحلل من غرائزه الحيوانية السفلى ويوم أن خرج من منطقة الحيوان الغير المدرك أو الواعي الى منطقة أخرى وهي منطقة استكشاف الروح فيه ، وتأثره بها وتنميتها فيه وتوفير عوامل الوعي والادراك في نفسه

فالعقيدة إذاً من مقومات إنسانيته ، ومن بواعث نفرتة من سلطة الغرائز الجبرية ومن تحلله شيئاً فشيئاً من صبغة الحيوان المسيطرة عليه ماديته والأخذة عليه كل سبيل من سبيل التقدم والارتقاء فإذا رد علينا اخواننا اللادينيون وقالوا لنا ان عوامل الوعي والادراك لم يكن سبيلها استكشاف الروح واستشعار الإنسان الأول بها وإنما كان سبيلها سنة النشوء والتطور والارتقاء في عقل الإنسان البدائي كان ردنا عليهم أن إيمان الإنسان الأول بالروح وخلودها ، وأن وراء حياته هذه حياة أخرى كان من البواعث التي حملته على كثرة التفكير والتأمل ، وبالتالي على تكوين مادة لعقله استعان بها على اليقظة والنهوض والعمل على هتك ما كان يكتنفه من سجب الجمال والظلام فلم توجد العقيدة بالروح التي يرجع اليها الفضل الاكبر في استشعار الخواص وعمل العقل ، والتي يرجع اليها بعد ذلك فضل التفكير البشري والتأمل العقلي ، ومحاولة البحث عن حقيقة الوجود

أقول لو لم توجد هذه العقيدة لما أتى للعقل أن يخرج من جهالة ولا أن يبدد ما تكاثف أمامه من إبهام وظلام ، ولكان اتخذ له طريقاً آخر يستعين به على نضوجه وإدراكه ، وتطوره وارتقائه مع أننا لانعرف طريقاً آخر يمكن أن يستخدمه الإنسان في هذا السبيل

ومع ذلك فنحن لا نتصور انساناً يعيش البتة بغير عقيدة أيا كانت هذه العقيدة ، فحتى الإنسان الملهد أو الانسان اللاديني لا يمكن أن نبرئه البتة من العقيدة فإنه في حقيقته مؤمن ولكن في وضع آخر وفي صورة أخرى .

ولذا نحن دققنا النظر وتعمقنا البحث في منشأ الفلسفة والعلوم والفنون وكل فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثراً في كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية أو بما يعضاد هذه العقيدة الدينية من عقائد أخرى وبذلك يظهر لنا بما سبق ومن ردنا عن السؤالين الآنفين أن العقيدة خلقت مع خلق الإنسان ووجوده الوجود المدرك ، وأنها نبعث من طبيعته وكوامن نفسه ، وأنه من العسير عليه أن يستغنى عنها أو يحيا بدونها سواء رضى ذلك أم لم يرضه ، وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه

وعلى ضوء هذا الاستطراد السريع والتقاريرات المتقدمة نجيب أن نجيب عن سؤالنا الذي صدرنا به هذا الفصل وهو (هل الدين لازم للبشر ؟)

ونحن بعد ذلك ، وبعد أن سردنا لك تاريخ تطور العقيدة الانسانية نقول نعم ! نقولها ونحن مطمئنون واثقون مؤيدون بوثائق منطقية وعقلية ! نقولها وماضى الإنسانية يثبت لنا ذلك ، وحاضرها يسجل عليها أنها تفرع الى الدين مستنقذة نفسها من حيرتها وضلالها وشقوتها . أما مستقبلها فينبئنا بأنها تسير بخطى سريعة نحو الدين آخذة بأصوله ومبادئه وذلك بما تصطنعه هي لنفسها من نظم وتنسجه من قوانين يتحقق بها العدل ويرتفع بها الانسان وتهدف إلى ما ترمى إليه جميع الأديان

لقد دللنا في إجابتنا عن سؤالنا الاول على أن العقيدة ليست شيئاً طارئاً

أو جديد آ على الانسان ، وانما هي من صميم طبيعته وانسانيته كانت مميزة له عن الحيوان غير المدرك وحائلة بينه وبين سيطرة المادة وطغيانها عليه وتفردا به ثم دللنا في ردنا على السؤال الثاني أنه من العسير على الانسان أن يعيش بغير عقيدة لأنه فضلا عن أن العقيدة نبعت من نفسه وأنها ملازمة لطبيعته فإن ما ركب فيه من عواطف وحواس وقلب وعقل كل ذلك بجبره على أن تكون له عقيدة حتى لا تتعطل وظيفة عواطفه وحواسه وقلبه وعقله وحتى يكون انساناً مهذباً متحضراً يخطر خطراته ويسير في حياته على ضوء الحقائق وروحى من هدى قلبه وعقله وبصيرته وعقيدته

والى هنا نعلم أن بعضاً من المتفلسفين والعلماء الماديين سيهزون رؤوسهم موافقين ولكنهم سيرفعونها دهشين متحدين سائلين قائلين وما شأن هذا بالدين . إنهم يقرون العقيدة ولزومها وضرورتها للانسان ولكن في الواقعيات والماديات وحدها أمامادون ذلك فلا شأن لهم به ولا عقيدة لهم فيه ولكننا سنزيل من دهشتهم وسنلطف من حديثهم فنقول لهم إن الدين لا ينكر عقيدتك في الواقعيات والماديات وإنما يقرها ويعمل لها باعتبارها جزءاً مادياً الى الاعتقاد به ، وباعتبار أن مادها اليه من أمور أخرى سماعية وغيبية تفيد هذه الواقعيات والماديات ولا تضرها لأنها تسمو بها وتصلحها وتقتل جرائم الفساد فيها

لقد قرر علماء النفس والتربية والاجتماع أن الانسان المثالى الذى يعمل لصالح الانسانية ولخير المجتمع هو الانسان المثقف المهنى ولكنهم لم يعترفوا من ظهرت هبقرية في العلم أو الفن أو الأدب أو أى فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية بأنه انسان مهنى مثقف وانما اشترطوا فيه أن يكون ملماً بكل طرف من اطراف المعرفة آخذاً من كل شيء بحظ غير قليل يكيف به ماتخصص فيه من علم أو فن أو فلسفة أو أدب خشية جموحه وخطاسته وأنانيته وعدم استجابته لروحى الانسانية العام وتحويل عواطفه واحساساته نحو منحى خاص ووقوفها عنده لا تتذوق غيره ولا تؤمن إلا به

فإذا كان المتفلسفون والعلماء الماديون يؤمنون بأن العقيدة في الماديات

وحدوها تسلفي فإنهم يخالفون الحقيقة ويبتعدون عن الطريق السوي بغرورهم
وعنادهم وخيالهم وضيق مداركهم والتواء عقولهم فهم مقصرون في حق أنفسهم
لأنهم يسمون لها دائرة محدودة لا يؤمن فيها الزلل ولا يعتصم معها من الضلال
نحن في دعوتنا الى أن العقيدة في الدين والعمل بأصوله ومبادئه الصافية
الخالصة نحن في دعوتنا الى أنها شيء لازم للإنسان المثالي الممتاز لا غنى له عنها
ولا إستقامة حياته بدونها لأنكر العقيدة في الماديات والواقعيات ولسكننا ننكر
بقوة وبشدة الوقوف عند ذلك والاطمئنان له فكما أنكر علماء النفس والتربية
والاجتماع على العالم أو الفنان أو الفيلسوف أو الأديب الذي لم يصقل ذوقه
ويكيف عقله ويهذب معارفه بأخذه بحظ يذكر من جميع المعارف التي لم يتخصص فيها
إذا كانوا أنكروا عليه التشقيف والتهذيب فكذلك نحن ننكر أيضا على من
يقصرون العقيدة على كل ماهو مادي محسوس مرئي للعين إدراكهم للحق
والصواب والرشاد

ننكر عليهم سعة الصدر ، وصقل الأخلاق ، وميزة الاتزان . . .
إن من طبيعة العقل البشري القصور والعجز والتطور من النقص الى شيء
من النضوج والكمال فمن يريد أن يحمل العقل معرفة أسرار الكون فانما يحمله
محالا ، ويخرج به عن طبيعته - طبيعة العجز - الذي يتطلب نضوجا ، والنقص
الذي يسعى الى شيء من الكمال

لقد أثبت تطور العلوم الحديثه أن في الكون أشياء وأسرار كان من المحال
على العقل أن يؤمن وجودها وحدوثها . ولكن لم يمنع ذلك أن تكون لها
كائناتيا ووجودها فمن يقصر بعد ذلك الايمان على العقل وحده فانما يبحث
عن إيمان ناقص فقد أهم العناصر لنضوجه وكماله وهي : وحى البصيرة ، والهام
الوحي الباطن وتأثير الاحساسات الادراكية

ومع ذلك فلن نكتفي بهذا وانما نحب أن نسأل هؤلاء السادة من الماديين
الطبعيين اللادينيين . ما الذي ينشده الدين من كل هذه الأشياء التي يدعو الى
الاعتقاد والايمان بها ؟ وما طبيعة هذه الاشياء ؟ هل هي خيرة أم شريرة ؟

وهل هي محبة للنفس الفردية مسعدة لمجموع الانسانية أم أنها كريمة الى النفس
جالبة الشقاء والدمار على المجتمع الانساني ؟

نعم نحب ان نسأل هؤلاء السادة : هل كان الدين في جوهره وغايته ، وفي
البيئات التي نزل فيها عاملا من عوامل التقدم والتطور والرقى الانساني أم أنه كان
راجعا بالانسان القهقري الى الوراء ! ولسكننا نعتقد ان هؤلاء السادة سيستقسط
في أيديهم وسيصممون صمت القبور لأنهم سيجدون أمامهم دلائل مادية محسوسة
ملبوسة عندما يولون وجوههم شطر هذه البيئات التي أنزلت عليها كل الديانات
السمائية في عصورها المختلفة . سيجدون هذه البيئات تمرع في جهل مطبق
وتعيش في ظلام قائم وتكيف حياتها ، وتسئ نظمها ، وتشرع قوانينها على
ضوء من الانانية والتعصب والتسلط ووجود سادة وعبيد ، وأغنياء وفقراء
وأقرباء وضعفاء ، وعدل مزيف ، وحق لا للناس عامة ، وإنما للقوى وحده
والظالم والمعتدى والمغير

نعم لو تعمق الباحث المحايد إلى أعماق هذه البيئات التي أنزلت عليها الديانات
السمائية لا استرعى نظره ما كان يعتورها جميعاً من عوامل الانحطاط والفساد
الذي كان ينخر فيها ويهددها بالانقراض والفناء مما سنسهب في التحدث عنه في
مكانه من هذا الكتاب

فإذا فعل الدين في هذا الجو الموبوء . وفي هذه البيئات الفاسدة التي لو تركت
وشأنها لقضت على نفسها وعلى نمو الانسانية ونظام العمران هل أقرها على
نظمها ومبادئها وما تواضعت عليه من معيشة وما ألفته من حياة حتى يتجنب
وقوفها ضده وصددها لمبادئه ومصادرتها لما يدعو اليه ؟ وهل كانت الرسل التي
حملت أعباء تبليغ رسالة الدين . مبشرين ومنذرين . وهادين ومبشرين هل كان
هؤلاء الرسل الا افراداً ممتازين في انسانياتهم وفي اخلاقهم وفي اثارهم للغير وفي
كل ما هو حميد محبوب من صفات الوفاء والحق والعدل ، وصفاء الضمير ونفاذ
البصيرة ورجاحة العقل ؟

ليجيبنا هؤلاء السادة اللادينيون عن ذلك فما نشك أن ذلك يخفى عليهم

لأنه مسطور في التاريخ مقروء فيما نزلت به هذه الديانات.

إن قلبي ليضطرم وأنا أخط هذه الكلمات لأن العاصين للدين والكافرين به والجاحدين بفضائله يفسرون الدين في ضوء ما كان يأخذه ويتمثل به اتباعه والقراءمون عليه الذين أتوا بعد رسالهم بحقب ليست قصيرة والذين كانوا يلونونه على هواهم بعقولهم الرجعية. ويمثلونه بعيد أعما كان يدعو ويسعى إليه ويبغى تحقيقه. ومن هنا فهموه على غير حقيقته ورموه بالأباطيل والترهات وهو من كل ذلك براء. إنني لأطلب من هؤلاء السادة أن لا يقفوا عندهؤلاء العلماء. وأن لا يأخذوا شيئاً عنهم، وأن لا يتمثلوا الدين في ضوء أفواههم وأفعالهم لأنهم أساءوا إلى أديانهم إساءة لا تغتفر، ولأنهم إن يجدوا عندهم شيئاً من فضائل الدين ومزاياه وحقائقه وجوهره وذلك لانهطاط مداركهم ومرض نفوسهم وتكالبهم على الطمع والجشع وتسخير عقولهم وتأويل أحكام دينهم لأغراض سياسية وذلك ارضاء لغرورهم أو لرؤسائهم ! وإنما عليهم إذا أرادوا نشد الحق والعثور على الحقيقة أن يولوا أنظارهم شطر الأديان في كتبها المنزلة، وإن يدرسوا البيئات التي انزلت فيها هذه الديانات ليروا ما كان يكتنفها من عوامل الهدم والفسوق والبعد عن الصراط المستقيم ثم بعد ذلك يسألون أنفسهم؟ هل حقق الدين الإنسانية نفعا وخيراً وصالحاً وهل رسم لها طريق التقدم والسمو والكمال أم لم يحقق أو يفعل شيئاً من ذلك؟ وهل لو نظرنا إلى رسالات المفكرين والمصلحين والعقريين من بني البشر هل نجد الدين كان يقف في طريقهم (ولا أقول علماء الدين) أم أنه كان يساعدهم ويأخذ بيدهم. بل كانوا يعتمدون عليه هم في تكوين إدراكهم، ونمو مواهبهم، وتحقيق غاياتهم

لقد سبق أن قررنا بأن اكتشاف الروح في الإنسان الأول كانت من العوامل التي حملته على الخروج من منطقة اللا إدراك إلى منطقة الإدراك ثم على التأمل والتفكير في نظام الكون وحقيقة الوجود فترك تراثاً من الفكر والأساطير والفلسفات مهما يقل فيه فإنه كان مادة صالحة ومفيدة لعمل العقل الإنساني في كل أطواره التي مرت به

وفايا على ذلك نقرر والتاريخ معنا شاهد حق على أن ما بلغه الانسان من نضج وتقدم وتطور وعلى ان ما اصططنعه من صور التفكير وألوانه المختلفة وما أقامه من اختراعات وابتكارات وأشياء أخرى كان ذلك كله بسبب البذرات الأولى التي وضعها الدين في دعوته الى الايمان بالله خالق السكون ، وصانع الأرض والسماء فوجد العقل بذلك طريقه في البحث عن ماهية الروح ، وحقيقة السكون وأسرار الطبيعة وما وراءها وهيئت له بسبب ذلك السبيل للتأمل والتفكير والبحث والتدقيق في معرفة طبيعة الأرض وحقيقة السماء فاخترع ما اخترع واكتشف ما أمكنه اكتشافه من أسرار وعالوم وقوانين وما اصططنحه لـكل ذلك من اصطلاحات

ومع ذلك لا نود أن نكتفي بهذا لأننا نعلم أن بعضا من الناس سيتعرضون لنا قائلين ولذا كانت طبيعة الدين كما ذكرت . فكيف اذا حارب الدين العلم وكره الناس فيه وانكره عليهم وبغضهم فيه ؟ وجوابنا عليهم أننا لا نعلم أن الدين في ذاته - أى دين من الأديان المنزلة - انكر العلم المفيد للانسانية الأخذ بها نحو السمو والكمال لا نعلم أن الدين أنكر شيئا من العلم أو عاداه أو أكره الناس على عدم الأخذ به لأن هذا مخالف لطبيعته ورسالاته وغاياته - فإذا كان هؤلاء يغمنون العلماء الذين سموا أنفسهم بعلماء الدين فالدين ليس مسئولا عنهم وهو منهم براء

اننا نعلم أن الدين أنكر بعض العلوم وبغض الناس فيها وصرفهم عنها مثل علوم السحر المؤذية للانسان ؛ و مثل العلوم الأخرى المبليلة لافكار الانسانية والمقلقة لراحتها وأمنها ولكنه كان ينظر من وراء ذلك مصالحة الانسان وخيره وسعادته وهنا يظهر لنا ما في الدين من سمو وكمال وارتفاع عن الدنايا والمربقات وتحلل من الغريزة الوحشية والبغضاء والانتقام فأى عقل يهضم بعد ذلك أن الدين كان يقف أمام العلم يعثر خطواته ويسد طريقه

إن الحضارة الحديثة التي من آثارها وجود هذه العلوم والفنون وكثرتها وتشعبها تنكر بقوة وبشدة استعمال العلوم المبيدة للانسانية المفككة لرابطتها

المقوضة لأركانها

فهل هناك انسان بعد ذلك عنده ذرة من العقل والوجدان السليم يستطيع أن يقول إن الدين وقتب في طريق العلم و فوق من تطوره ونهضاته
ان الباحث المحايد النزيه لا يسعه الا أن يشكر الله ويحمد له ما أفاء على الانسانية من خير بوجود الدين الذى نجاها من الضلال وجنبها العثرات وميزها تميزا ساميا رفيعا عن باقى المخلوقات

(١) قال جون استيوارت ميل فى رسالة له فى قائمة الديانة
« ان الديانات قد أفادت قديما فى تعليم الانسان مكارم الاخلاق ومحاسن العادات ، وكانت هى المرجع الوحيد الذى كان يرجع اليه فى التفرقة بين الحسن والقبيح والمباح والمحظور . واسكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته عن التفكير فى مضامينها والتخلص من عيوبها وعنده أن العقائد الانسانية كافية فى تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التى تقوم على ما وراء الطبيعة لولا مزبة هذه العقائد لا توجد فى العقائد الانسانية وهى تعزية النفس برحمة الله ودوام الحياة فى العالم الآخر ولا مانع عقلا ولا علما فى أن يصح وعد الديانات بالحياة بعد الموت »

وقال الأستاذ الفيلسوف جمال الدين الافغانى فى كتابه (الرد على الدهريين)
ترجمة الاستاذ الامام محمد حمده

« اكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدينتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارنة الفساد ويصدها عن مقارنة ما يبديها ويبدها (العقيدة الأولى) التصديق بأن الانسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات (والثانية) يقين كل ندى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل (والثالثة)

جزمه بأن الانسان انما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جدية أن تسمى بيت الأجران وقرار الآلام الى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لاتنقض سعادتها ولا تنتهي مدتها لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجائلة في الاجتماع البشري والمنافع الجمّة في المدنية الصحيحة وما يعود منها بالاصلاح على روابط الأمم وما اسكل واحدة من الدخل في بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسألة والمواذعة والأخذ بهم الأمم للصعود في راقى السكالم النفسى والعقلى

من البين أن اسكل عقيدة لوازم وخواص لاتزايها فما يلزم الاعتقاد بأن الانسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصفات الخيرية ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها وكما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلى وكما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى قد ينتهى به الحال الى أن يكون واحدا من أهل المدنية الفاضلة يحيا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة الانسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحر الوحشية فى معيشتها والثران البرية فى حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراضمة لاتستطيع دفع مضرة ولا التقيّة من عادية ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها وتنقضى أجلها فى دهشة الفرع ووحشية الانفراد

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الانسان عن التقاطع المؤدى لاقتراس بعضهم بعضا كما يقع بين الأسرد الكاسرة والوحوش الضاربة والكلاب العاقرة وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته وانجى دافع للعقل فى استعمال قوته وأقوى

فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من الرذائل

ان شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون
أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب
الدنايا والرذائل والى أى حد تصل بهم الشرور وبأى منزلة من الدناءة تسكون
نفوسهم وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية
ومن خراس يقين الأمة بأنها أشرف الأمم وجميع من يخالفها على الباطل
أن ينهض أحادها لمسكثرة الأمم في مفاخرها ومساماتها في مجدها ومسايقتها في
شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن تتفق جميعها على الرغبة في فوت جميع
الأمم والتقدم عليها في المزايا الانسانية عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت
أو معادية وتأبى نفس كل واحد عن اعطاء الدنية والرضى بالضم لنفسه أو لأحد
من بني أمته ولا يسره أن يرى شيئاً من العزة أو مقاماً من الشرف لقوم من
الأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ذلك انه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه
أليق وأجدر بكل ما يعد شرفاً انسانياً

فان جازت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلثت مجدهم أو سلبتهم
مزية من مزايا الفضل لم تستقر له واحة ولم تنشأ له حمية ولم يسكن له جيشان
فهو يمضى حياته في علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت في أساء
فهذه العقيدة أقوى دافع للأهم الى التسابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب
بها إلى طلب العلوم والتوسع في الفنون والابداع في الصنائع وانها لا تبلغ في سوق
الأمم الى منازل العلاء ومقام الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل وان
أردت فالح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور في حركات
آحادهم نحو المعالي وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل وماذا
ينزل بقراهم من الضعف وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أية هوة
يسقطون من الذلة والهران خصوصاً اذا بغى عليهم الجبل فظنوا أنهم أدنى من
سائر الملل كطائفة (الدهير) و (مانك)

ومن مقتضيات الجزم بأن الانسان ماورد هذا العالم الا ليتزود منه كمالاً

يعرج به الى عالم أرفع ويرتحل به الى دار أوسع وجناب أرفع أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لاضاعة عقله بالعلوم الحققة والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم ينصرف همه لابرار ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والحواس الجليلة باستعجالها فيما خلقت له فينجلى كماله من عالم السكون الى عالم الظهور ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ولا يناله التفسير في تقويم ملكاته النفسية وينزع لكسب المسال من الوجوه المشروعة إمتنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة معرضا عن ابواب الرشوة وترفعاً عن الملقى السكبي والخداع الثعالي ثم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق وعلى الوجه الذي ينبغي وبالقدر الذي ينبغي لا يأتي فيه باطلا ولا يغفل حقاً عاماً أو خاصاً

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للانسان الى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحققة والأخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التي لا عماد لها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره وعليه والقيام على صراط العدل المستقيم هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم اذ لا عقد لها الا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدون والمسالمة فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق والسجايا الحسنة وهي غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور وتنجيه عن متآثره الشقاء وتعاسة الحد وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة وتجاسه على كرسى السعادة

وقد يسهل عليك ان تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفة « انتهى »

وهكذا وجدته مضطرا لأن أنقل لك هذا الفصل بأجمعه لأنه متصل ببعضه ببعض اتصالا وثيقا ولأنه صادر من مفكر شرقي عظيم يعتبر الباعث الأول لاهضتنا الحديثة والذي تلهذ على يديه زعماء الفكر والسياسة والدين في مصر والشرق جميعا

وإذا كان لنا أن نكتب بعد ذلك شيئا عن مزايا الدين وضرورته للبشر وإن عقيدته هي أفضل العقائد وأقواها وأسمها بعد أن قررنا فيما سبق من الكتاب بأدلة مادية قاطعة بأنه ليس للإنسان مفر من عقيدة في نفسه لأنها من طبيعة تكريته ولأنها من لوازم تطوره ووجوده كأنسان متحضر في هذه الحياة إذا كان لنا أن نكتب بعد كل ما قدمناه من دلائل واثباتات واستشهادات أقول إذا كان لنا أن نكتب شيئا عن عقيدة الدين بعد هذا كله فإننا سنتكلم عن موجد هذه العقيدة والداعي إليها والأمر بها بواسطة رسوله وكتبه المنزلة من السماء

سنتكلم على حقيقة الوجود ، أو على حقيقة الإله خالق الكون وباسط الأرض ورافع السماء ومنظم العمران بعيني خير قدير وكما قلنا نحن سابقا من أننا لم نقيم بهذا البحث حبا للترف العقلي والفنزهة الفكرية وكثرة المناقشة والجدل فيما لا ينفع ولا يفيد الإنسانية في حالتها الراهنة وفيما تستقبله من الأيام وإنما نحن في دراستنا هذه لا نشهد إلا الخير والفائدة الملموسة والمحسوسة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها فن أجل ذلك أن نناقش علماء «الميتافيزيقيا» في آرائهم الكثيرة المتناقضة وفي تفسيراتهم المتباينة المختلفة لحقيقة الوجود وماهية الكون ولسكننا نكتفي رغم اختلافهم في ذلك بإعترافهم جميعا بأن وراء الطبيعة قوة قاهرة قادرة تفرع منها الوجود وتسبب عنها حدوث الكون فإذا جاءت الأديان لترشدنا وتدل لنا على أن هذه القوى القاهرة القادرة هي الإله خالق الكون ورب الجميع الذي لا أول له ولا آخر ولا بداية له ولا نهاية والذي بيده الملك ، ويده الأمر والنهي والذي سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه واكتسبه من خير أو شره فن عمل صالحا فأنفسيه

ومن أسماء فعلها وما ربك بظلام للعبيد ،

إذا جاءت الديانات لتدعونا بأن نؤمن بهذا الإله بعد أن أظهر العقل عجزه عن معرفته وتصويره . واكتشاف حقيقته وبعد أن وجدنا فليسوفاً عبقرياً مثل (عما نوتيل كانت) المفكر الألماني الذي سادت فلسفته أوروبا في القرن التاسع عشر والتي مازالت فلسفته تؤثر في الفكر البشري حتى الآن بقرراً في قوة ومن غير تحفظ دبان لا سبيل للعقل في معرفة حقيقة الله أو حقيقة الروح لأنه لا تتوفر فيه القدرة على ذلك . ولأنه يعجز عن أن يصل إلى شيء أضخم وأعظم منه ولأن مجاله لا يتأني إلا في الأشياء المادية الملموسة المحسوسة والله منزّه عن المادة ، وعن أن يكون شيئاً ملموساً محسوساً ،

فالعقل هنا يثبت تقصيره وعجزه أمام القوى الازلية غير المشخصة أو المستحدثة أو المدينة في وجودها لعلّة من العلل أو لسبب من الأسباب ولكن العقل إذا كان لا يملك ادراك الذات الإلهية فليس له من سبب وجيه لانكارها وعلى ذلك فإنه يكون من الجحود لأنفسنا أن لا نؤمن بوجود الإله

وإن الباحث إذا رجع بنظره وفكره إلى التكيفية التي آمن بها الإنسان الأول - وإن كنا نقرر هنا بأن إيمانه لم يكن صحيحاً - إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نعرف الأدوات التي استعملها في البحث عن ماهية الكون وحقيقة الإله وأول شيء يبرز لنا من ذلك أن العقل لم يستأثر وحده بالبحث ولم يكن وحده هو الأداة التي حملت الإنسان على الإيمان بالروح بل كان القلب وكانت الاحساسات هي التي تحملت النصيب الأوفر في ذلك .

لقد قررنا نحن فيما مضى بأن ما اكتسبه العقل من إنارة ونضوج كان بسبب الاحساسات الإنسانية التي استشفت للعقل المادة التي يتدبر فيها ويتحكم ويحكم وغاية ما نقوله في هذا الموضوع هو أن العقل الذي طبيعته القصور والعجز دائماً فلا سبيل له إلى الكمال أبد الأبد من العبث أن نحكمه في الكمال المطلق ليلم به ويتحكم عليه . وإنما نحكمه فيما يرتاح إليه القلب وترتاح إليه الاحساسات ، نحكمه في الفوائد الملموسة التي يجنيها المجتمع في إيمانه بالله . أو في الشرور التي

ينغمس فيها بالكفر به

قال الفيلسوف الانجليزى هكسلى فى حقيقة الاله :

(هناك طريقة الى الحقيقة الالهية من داخل النفس وطريقة اليها من داخل العالم وجواهره واعراضه . ومشكوك فيه أن تغنيانا واحدة من الطريقتين عن الأخرى كل الغنى فأما إذا اتفقتا معا فذلك هو النهج السديد)
ويقول العقاد فى صفحة (٣٩٣) من كتابه (الله)

(نحن قد جهلنا أحكام البساطة وصفاتها فى المادة المحسوسة قرونا بعد قرون ولا نزال نعلم أننا واهمون فيما نتصف به من الحركة والسكون . فن أن لنا أن ندرك أحكام البساطة الالهية قياسا على وصف لا تحيط به العقول من أين لنا ان ارادة الله من قبيل ارادتنا . وأن علم الله من قبيل علمنا وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم اذا كان سلباً لا أثر له على سبيل الثبوت هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا ان الله جل وعلا (ليس كمثله شئ)
فكل ما نعلمه أنه جل وعلا (كمال مطلق) وان العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يسكون وكيف يفعل وكيف يريد .

ويفضى بنا الكلام فى طاقة العقل الى نتيجة رابعة وهى الصلة بين العقل والايمان فكيف تؤمن اذا كان العقل الانسانى قاصراً عن ادراك الذات الالهية وكيف تأتى الصلة بين الكمال المطلق وبين الانسان
وقد نمهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث الى نصابه
فنسأل : أيراد بالعقل اذا أن يكف عن الايمان حتى يكون عقلاً كاملاً مطلق الكمال أم يراد بالعقل أن يؤمن بالله دون مرتبه الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك فما يقع فى حسابان فالكائن الذى يستحق الايمان به هو الكائن الذى يتصف بالكمال المطلق فى جميع الصفات وغير معقول أن يكون سبب الايمان هو السبب المبطل للايمان . وغير معقول أن يستحيل الايمان مع وجود الاله الذى يتصف بأكل الصفات فالخروج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين

الخالق وخلق لا تتوقف على العقل وحده : وأى عجب فى ذلك إن الانسان كله لى الوجود وليس العقل وحده هو قوام وجود الانسان . فلما اذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المتسام أفعنى هذا أن العقل الانسانى لا عمل له فى مسألة الايمان ؟ كلا بل له عمل كبير ولكنه ليس بالعمل الوحيد وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الايمان . ويستطيع أن يباخ غاية حدوده ثم لا ينكر حدودها لانه وراء تلك الحدود يستطيع أن يسأل نفسه : أتمكن أن يمتنع على الايمان بالله لا لشيء الا لانه متصف بأكل الصفات التى يتعلق بها إيمان المؤمنين فان لم يكن ذلك ممكنا فليعترف (بالوعى الدينى) لانه ضرورة لا يحصى عنها ولانه واقع ملازم للانسان فى محاولاته الاولى ، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره أبداً (الآدين) انتهى

ومع ذلك فاننا لانحب أن نترك هذا البحث دون أن نجد للعقل ونجد المنطق مجالاً فى معرفة آثار الذات الالهية وفى معرفة ما تجنيه الانسانية من الايمان بها من خير أو شر : نعم هنا مجال العقل ، وهنا مقارعة المنطق وهو هل الايمان بالله وإطاعة أوامره والابتعاد عن نواهيه خير وإصلاح وتهذيب للانسانية أم جرم وفساد وشر ووبال عليها :

ان النفس الانسانية أماراة بالسوء ، وإن الغريزة البشرية ركب فيها من عوامل الاثرة والوحشية والاعتداء ما لو تركت وشأنها لقصت على الانسانية والعمران شر قضاء فلو لم يستشعر الانسان ويؤمن بأن هناك قوة قادرة عليم بصيرة تقف له بالمرصاد وتسجل عليه ما يكتسبه من الأعمال وتستحاسبه على ما قدمت يداه من خير أو شر حساباً عسيراً فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

إذا لم يؤمن الانسان بذلك لما كان هناك فرق بينه وبين الذئاب المتوحشة والنمر الكاسرة ، وذلك فضلاً عما يجره القلب فى ايمانه بالله وما تجده الاحساسات البشرية من معين للتغذية ومن مجال للرفعة والتسامى والايثار والحب

إن التعاليم والمبادئ التي نزلت بها الديانات من قبل الله من تكرر القول بالتحديث عن نفعها وخيرها الإنسانية لأنها من البدائيه التي لا يتناول إلى انكارها إنسان كائننا من كان والتي يقف أمامها العقل البشري منحنيًا في تقديس وإجلال .
يقول أحد الفلاسفة الغربيين (لو لم يكن للبشر إله لكان من الخير لهم أن يصطنعوا لأنفسهم إلهًا)

ويقول الأستاذ جمال الدين الأفغاني في كتابه سالف الذكر : إن الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرة القلوب ومطويات الأنفس سبى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قدر للخير والشر جزء بوفاء مستحقه في حياة بعد هذه الحياة . وفي الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان حتى مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لتحقيق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر ديمية الاجتماع الإنساني ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش

فلو خريت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتلق ونفاق وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه كما سبق فإن لم يؤمن بشواب وعقاب وحساب وعتاب في يوم بعد يومه فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصاً إذا تمكن من إخفاء عمله وآمن من سوء عاقبته في الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة والعباد من سنن الفضيلة وأي حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها (ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتز ناقصاً لفقد ما يمدده من سائر صفات الكمال)
وقد تبين أن أول تعاليم الدهريين إبطال هذين الاعتقادين (الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الأبدية) وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الإباحة

والاشترك فهو لاء القوم هم الساعون في نفس بناء الانسانية وتذريته في ذبول السافيات يطلبون ضعفة أركان المدنية وفساد الاخلاق البشرية ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة يهلكون الأمم باطفاء حرارة الغيرة وانحساد ربح الحمية . هؤلاء جرائم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة والدناءة واحلاس الخسة والنذالة وأعلام الكذب والافتراء ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد وصحتهم صيد وتوددهم مكر ومواصاتهم غدر وصادقتهم خيانة ودعواهم للإنسانية خيالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة يخونون الأمانة ولا يحفظون السر ويبيعون الصق الناس بهم بأوفى مشتهياتهم عبيد البطون وأسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا اعقبها عطية ولا يخرجون من الفضيحة اذا اتبعها رضىخة لا علم عندهم بالوفاء ولا احساس لهم بالعار ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنات لا أمان لها من كليهما . نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبيعيين ،

الى أن قال : فبينما قررنا أن الدين وأن انحطت درجته بين الاديان ووهى أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية وأجل أثراً في عقد روابط المعاملات بل في كل شأن يفيد المجتمع الانسانى وفي كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة وختم هذا الفصل بقوله : فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الالهى الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سبباً في السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصورى والمعنوى . ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدين من ديم الكمال الفعلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم ،

ويقول (أجوست سباتييه) في كتابه فلسفة الدين (لماذا أنا متدين؟) لم أحرك : شفى هذا السؤال مرة إلا وأراني مشوقاً للإجابة عنه بهذا الجواب ، ؟ وهو

أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولسكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية. فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين (إلى أن قال :

(وإذا فالدين باقى وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم انضوب ينبوعه بتمادى الزمن ترى ذلك ينبوع يتزايد اتساعاً وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة)

ويقول الفيلسوف (أرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى . بل سيبقى أبداً الأبدى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية » ويقول الدوس هكسلى : « إن الحضارة الأوروبية قامت على التفوق الذهنى وحده و خلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترف ولكنهما أهملت تربية عواطفه وأخلاقه وفضائله الروحية »

ويقول الفيلسوف الفرنسى (شارل) فى كتابه الوحي الجديد (لما فقد الناس التصديق بوجود الروح صارت مناسبات الأخلاق مهددة بالانضوب وأحست الإنسانية من نفسها بأنها قد دخلت دور الفتن والانحلال الذى يعقبه عادة التلاشى والفناء)

وقال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقال له فى مجلة الكتاب : اجتمع جماعة من أشهر رجال العلم يمثلون علم الفلك والكيمياء . والاقتصاد والتاريخ والأدب والفلسفة والدين ووضعوا تقريراً جاء فيه :

« الديمقراطية الصحيحة والثقافة الحقة يجب أن لا تعتمد على أن الإنسان جزء من الطبيعة فقط بل هو أيضاً كائن روحى . وأن الحياة الروحية لا يمكن

أن تفسر بالقوانين الطبيعية التي يشرحها علماء الطبيعة . وأن الروح الانساني
مستقل عن الجسم وبيئته . وأن اتصال الروح بالمنبع الأبدى مسألة أساسية في
فهم الروح الانساني وأن انكار الطبيعيين لعلاقة الانسان بالروح الأعلى التي
تسيطر على العالم أجمع حرمه من قوة الخالق وأبعده عن الصراط المستقيم
والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذا الفصل هي أن الدين لازم للبشر
زوم الماء والهواء للإنسان والحيوان والنبات ضروري لرقى الانسانية ضروري
لا يحصى منها ولا يحيد عنها . وأن الباحث لا يملك نفسه من أن يتنبأ بأن
الانسانية في تطورها هذا القوى العنيف سينتهي بها المطاف الى أن ترتقى في
حضن الدين ، وأن تكيف نفسها به ، وأن تستمد حياتها بوحى من هديده
فعلى الدين بعد ذلك أن يكون مرئياً صافياً خالصاً مما ألم به من الشوائب والباطيل
الترهات التي أملت به في عصوره الماضية وهو منها براء .

واقعد أخذنا على أنفسنا عهداً بأن نقوم بهذا العمل الضخم الجبار فنستظهر
ديننا الاسلامي ونقدمه للانسانية نظيفاً بما علق به لتري فيه بغيتها وهداه
تستنقذ نفسها به مما هي فيه من حيرة وضلال وظلوع عن الطريق المستقيم .
إن الاسلام هو آخر الاديان السماوية وأقواها وأصلحها وأعظمها مرونة
نحن أولاء نقدمه لا للمسلمين فقط وإنما للانسانية جمعاء لتري فيه رشاده
تستمد منه سعادتها في حاضرها وما يستقبلها بعد ذلك من عظمة وتفوق وامتيان

